عام على رحيل أستاذي الأول

فضيلة الشيخ سيدي محمد نديم الشهابي عليه رحمات الله الواسعة

الحمد لله الذي جعل في الأحياء أحياء يحيون ما مات من قيم الحياة ونظمها، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

ها هو قد دار فلك العام أو قارب، وعادت الأيام بظلالها تذكرني سفر العام المنصرم التي ودعت فيه اثنين من أعز الناس علي وكأني ما ذهبت إلا لألقي نظرات الوداع عليهما وأغتنم ما كتب لي معهما من ساعات:

أما الأول:

فهو والدي العزيز عبد الكريم بن أحمد النعمة الذي وافته المنية بعد عودتي من سوريا ببضعة أشهر بعد معاناة كبيرة مع المرض تغمده الله تعالى بواسع رحمته وعظيم عفوه وإحسانه وأسكنه فسيح جنانه.

وأما الثاني:

فهو فضيلة سيدي الشيخ محمد نديم الشهابي عليه سحائب الرحمة والرضوان والدي المعنوي وأستاذي الأول وقدوتي الأفضل الذي له فضل علي لا ينسى، حيث وافته المنية بعد وفاة والدي بفارق أسبوع واحد.

فسبحان الله مقدر الاقدار، على ما قضى في شؤون خلقه، ولست بصدد الحديث عن والدي الشبحي العزيز وإن كان فضله عليّ عظيم وأثره فيّ مقيم ولا أنسى فضله كيف؟!

وهو الذي كان سبب وجودي في هذه الدنيا فجزاه الله عني وعن إخوتي خير جزاء وأكرمه وأحسنه.

وإنما سأنقل لكم بعض ما أستطيع من لمحات ميدانية وآثار عرفانية وثمار إيمانية عن أستاذي المبارك عليه رحمات الله الواسعة الذي لا أجد ما أكافئه الا أمران:

- الدعاء له وهو أقل الواجبات، وهو من حق الأبناء للآباء.
- الشكر والتقدير والوفاء بالكتابة عنه وذكر بعض شمائله ومواقفه وهذا المقال بعض مما يجب.

وحتى يكون الحديث عنه منتظما مسلسلا فسأجعله وفق المحاور الآتية:

- ✓ النشأة والمولد والملامح الذاتية
- ✓ مفتاح التغيير ونبراس الإصلاح
- ✓ شغفه بالعلم وفناؤه بالتعليم
- ✓ التوازن الشخصي والتكامل السلوكي
- ✓ الدعوة الصادقة وجوهر الإصلاح
- ✓ الورع النادر والصفاء المتميز
- ✓ مفردات من شمائله ووفاته رحمه الله تعالى

أولا : المولد والنشأة وملامح عامة عن سيرته الذاتية [1]

- اسمه ونسبه : إنه سيدي الشيخ محمد نديم بن مصطفى بن عبد المجيد الشهابي، البابي مولداً، الحلبي إقامة، الحنفي مذهباً، الشاذلي طريقة.
- ولادته:

ولد في مدينة الباب عام ١٩٣٧م، وانتقل مع والده إلى حلب، وتلقى فيها علومه الأولية.

- تعلمه: ثم انتسب إلى دار المعلمين، وتخرج فيها عام 1379هـ/1959م، ثم انتسب إلى كلية الشريعة بجامعة دمشق وتخرج فيها عام ١٩٧٠م.
- شيوخه:

تلقى عن كثير من علماء زمانه و كان من أكثرهم تأثيرا في شخصيته فضيلة الشيخ المربي عبد القادر عيسى الحلبي رحمه الله تعالى، ثم بايع من بعده سيدي الشيخ الكبير أحمد فتح الله جامي رحمه الله تعالى، ثم من بعده فضيلة الشيخ محمد رجو حفظه الله تعالى.

- وظائفه:
  - كلّف بأمانة الإفتاء بمحافظة حلب عام 1405هـ/ الموافق لـ 30/كانون الأول/ 1984م، ثم طلب الإعفاء من هذا المنصب بتاريخ 11/ربيع الأول/ 1406هـ، الموافق لـ 23/تشرين الثاني/1985م.
  - إمام وخطيب جامع الفتح بحلب
  - مدرس تربية إسلامية في عدد من مدارس حلب
- أشهر مؤلفاته المطبوعة:

له عدد من المؤلفات والرسائل الصغيرة منها:

١ _هل الترك بحجة في التحريم

---

[1] أغلب ما في هذا المقال من معلوماتي الخاصة التي حفرت في ذاكرتي ولا تزال محفوظة بإذن الله تعالى لقربي منه وكثرة تواصلي معه وما أفادني ولده الحبيب الشيخ عبد القادر وحفيده نديم حفظهما الله تعالى بلطف وعافية فجزاهما الله تعالى عني خيرا بما أتحفاني به، وإني لآمل أن يقوم ولده الشيخ عبد القادر بكتابة كتابا خاصة يستوفي لنا فيه معالم حياة هذا العالم الكبير والداعية الموفق والمصلح الحكيم الذي لا تفي بحقه عشرات المقالات لما له من حياة حافلة بالفضائل الجليلة والأنشطة المتنوعة والأعمال النموذجية الوافرة رحمه الله رحمة واسعة ولروحه الفاتحة مع الصلوات.

٢ _غياث يصلي

٣ _أبو هريرة المتهم البريء

٤ _حكايات وعبر من هدي سيد البشر...وغيرها

- وفاته:

تـوفي فـي مدينـة حلـب يـوم الأحـد 25_08_2024 عـن عمـر نـاهز 87 عامـا قضـاها فـي العلـم والتعلـيم والـدعوة إلـى الله عـز وجـل رحمـه الله تعـالى وأسكنه فسيح جناته.

ثانيا :مفتاح التغيير ونبراس الإصلاح:

لقـد أصـبحت الصـحبة الصـالحة اليـوم والـدخول فـي دورتهـا التدريبيـة والاسـتفادة مـن مزاياهـا الربانيـة مـن أهـم العوامـل التـي كـادت ظـروف هـذا العصـر أن تجعلهـا فرضـا مـن الفـروض الإلهيـة وليسـت فضـيلة فقـط كمـا يظـن أغلبية أهل الإسلام.

وقـد حظـي المتـرجم لـه رحمـه الله تعـالى منهـا بـالحظ الأوفـى والقـدم الراسـخة حيـث التقـى بسـيدي الـولي الكبيـر الشـيخ عبـد القـادر عيسـى عليـه رضـوان الله وعنـا بـه وتلقـى عنـه جميـع علومـه الإحسـانية ومعارفـه الإيمانيـة حتـى أذن لـه بالمـذاكرة التربويـة وهـي ركـن مـن أركـان الطريـق عنـد القـوم الكـرام بـل إن عـددا كبيـرا مـن أقرانـه الثقـات المشـهورين مـن تلاميـذ سـيدي الشـيخ عبـد القـادر شـهدوا أن سـيدي عبـد القـادر قـال فـي حـق المتـرجم لـه: "نـديم صـورة طبق الأصل عن عبد القادر عيسى"

هـذا التفاعـل الكبيـر والتواصـل المسـتمر بـين هـذين العلمـين كـان لـه أكبـر الأثـر فـي صـقل شخصـية سـيدي الشـيخ نـديم إلـى أعلـى مسـتوى ممكـن للسـالك أن يبلغه.

وبتقـديري المتواضـع كانـت هـذه الصـحبة مفتـاح الخيـرات ومنبـع البركـات التـي حظـي بهـا سـيدي الشـيخ نـديم رحمـه الله تعـالى فهـي التـي كشـفت لنـا عـن مواهبه الفذة ومزاياه الفريدة التي طبعه الله عليها.

وكـان رحمـه الله تعـالى مـن الممتنـين لربـه العظـيم أن هـدي لهـذه الصـحبة ووفق لها حيث ذكر لي ذلك مرارا.

ومن ذلك أني ذاكرته بمعية سيدي الشيخ محمد رجو حفظه الله تعالى أيام الاعتكاف الرمضاني في إحدى الزيارات وبقينا معه للصباح وجلسنا معه بجلسة مطولة وكان من جملة ما قال:

"كل ما رأيتم هو من بقية مرقة سيدي عبد القادر"

وهو أمر تكرر عنه عشرات المرات في مناسبات مختلفة ومع عدد كبير من المحبين.

وبقي رحمه الله تعالى وفيا لهذا العهد مخلصا له مستمسكا به حتى بعض وفاة شيخه حيث تابع البيعة ودخل في صحبة سيدي الشيخ أحمد فتح الله جامي رضي الله عنه وعنا به طول الفترة التي عاشها معه والتي تجاوزت عشرين عاما وكان فيها مأذونا في الإذن العام حتى رحيل سيدي الشيخ أحمد رضي الله عنه حيث انتقل إلى رحمة ربه ﷻ من عامين أو زيادة.

ليس كذلك فقط بل إن الوفاء بالعهد الرباني الذي تلقاه عن شيوخه الكرام رحمهم الله جميعا دعاه ليبايع سيدي الشيخ محمد عبد الله رجو حفظه الله تعالى مع أنه أحد تلاميذه وبعض المستفيدين منه كما هو معروف ومشهور وهذا يدل على عظيم تسليمه بسر هذا الطريق المبارك وإخلاصه وصدقه فيه رحمه الله تعالى رحمة واسعة ورحمنا به.

بل يدل دلالة واضحة لكل مستبصر أن هذا الطريق متصل الحلقات متكامل الوصلات كل مأذون فيه مأذون من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ليس بالنص المقطوع كما يتخيل بعض المبالغين بل بالمشافهة القلبية والتربية الروحية التي يتلقاها المأذون عمن سبقه إلى سيد الخلق ﷺ وكم بسط لي سيدي رحمه الله تعالى هذه النقطة بدقة وإحكام بلا مبالغة ولا شطط فجزاه الله عنا كل خير.

وكم كان لهذا الموقف المشهود وهو إعلان بيعة الأستاذ لتلميذه السابق من آثار مباركة ونتائج إيجابية على الصعيد العام بين الناس حتى إن بعض أهل العلم الثقات عد هذا الموقف كرامة معنوية كبرى لهذا الطريق ومعلوم أن الكرامة المعنوية أنفع في الناس من ألف كرامة حسية!!

ثالثا: شغفه بالعلم وفناؤه بالتعليم:

معلوم أن العلم الشرعي شرف الأمجاد، وأم الفضائل ما صاحبه العمل والإخلاص والحكمة، ولقد كان للمترجم له رحمه الله تعالى الحظ الواسع حيث ترك في هذا الميدان بصمات راسخة لا تنسى وتجلى ذلك في حياته المباركة من خلال ما يلي:

- لم يكتف بانتسابه إلى دار المعلمين، وتخرجه فيها عام 1379هـ/1959م بل تابع مسيرته العلمية حيث انتسب إلى كلية الشريعة بجامعة دمشق وتخرج فيها عام 1970.
- تعيينه مدرس محافظة في جامع الفتح وقد وفق في هذه الوظيفة أيما توفيق فقد درس كثيرا من كتب العلوم الشرعية في العقيدة والفقه والسيرة والتصوف ولم يتركها إلى صبح اليوم الذي لبى فيه نداء ربه وهو يوم الأحد الخامس والعشرين من آب قريبا من هذه الأيام.
- عنايته بحلقات العلم الخاصة حيث كان يجمع لفيفا من طلاب العلم في مسجده العامر وقد قرأت على يديه مع ثلة من أهل العلم منهم سيدي الشيخ محمد رجو حفظه الله تعالى شيخ الطريقة الشاذلية الآن عدة كتب منها :
  - ✓ كتاب بهجة النفوس لابن أبي جمرة.
  - ✓ كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي .
  - ✓ كتاب العهود المحمدية للشعراني .

وكان قبيل وفاته بسنوات كما عرفت من الملازمين لدروسه يجعلها متنقلة في بيوت من يرغب من الأحباب تسهيلا عليهم وقد حضرت له في سفرتي الأخيرة درسا في مدارسة القرآن والحديث الشريف ما أحلاه وما أطيبه حيث كان بعد غياب طويل ؟!

- كانت له مشاركات وندوات يدعى لها من كثير من المراكز العلمية كمجمع النور في دمشق ومركز الشيخ صالح فرفور رحمه الله وغيره في دمشق حيث كان يلبي هذه الدعوات ويلقي فيها المحاضرات القيمة.

- حصة التفقه في الدين التي كانت بعد خطبة الجمعة من كل أسبوع واستمرت لأربعة عقود أو تزيد حيث كان يجيب فيها عن أسئلة السائلين المتعددة وكان له فيها نفس متميز حيث كان يختصر أحيانا ويتوسع مع لمسات إرشادية ما أجملها وما أطيبها!
- كانت له مؤلفات قيمة وإنتاجات رائعة في عالم الكتب حيث ترك لنا عددا من المؤلفات والرسائل الصغيرة منها[2]:
- بالإضافة إلى كلماته التوجيهية وتعليقاته الإرشادية التي كانت بسبب كثير من مناسبات الأفراح والاتراح ومجالس الإصلاح، حيث كان رحمه الله تعالى ذا صوت إذاعي متميز، وأسلوب خطابي فنان، مع قدم راسخة في فنون اللغة العربية يتخلله نور رباني يشع من ثنايا كلامه الجذاب وحكمة بالغة تنساب من التفاتاته الرشيدة، يعرف هذا كل من خالطه عن قرب وصحبه لفترة طويلة فجزاه الله تعالى خير جزاء وأكمله.

رابعا : التوازن الشخصي والتكامل السلوكي:

قلما تجد شخصية علمية مرموقة لها أثرها القوي في الصلاح والإصلاح إلا وتجد فيها قصورا لحد ما في بعض الجوانب على حساب الجوانب الأخرى وذلك يعود للضعف البشري بشكل عام ولأسباب أخرى يطول بسطها.

ولقد كان لسيدي الراحل رحمه الله تعالى القدم الراسخ والحظ الكبير في هذه النقطة المهمة في حياتنا جميعا ، حيث كان متوازنا مع نفسه يعطي كل ذي حق حقه ،لا يبخس شيئا على حساب شيء آخر ،خذ مثلا حياته العائلية مع جلالته المشهودة وهيبته المعهودة التي يعرفها أغلب الناس ،إلا أنه كان مع أهله وأرحامه ومعارفه الخواص من ألطف الناس عشرة وأليهم عريكة وأكثرهم بشاشة ، لا يتكلف له أحد لأنه جدهم الشيخ المبجل ، بل ربما رأيت له من التواضع ما يستحي واحد مثلي أن أذكره وكم مرة دخلت غرفته لبعض المذاكرات فقام بنفسه وحضر لي كوبا من شاي أو زهورات عندما لم يكن لديه أحد يقوم بهذه

---

[2] لمعرفة أشهر مؤلفاته رحمه الله ينظر الفقرة السابقة من هذا المقال

الخدمة ولما ألح عليه يبتسم في وجهي ويقول :"لا حرج أنت لا اطلاع لك على ترتيب المطبخ!

وكم دعي من جهة أناس غير مشهورين فأجاب ولم يتخلف بينما نجد من هو أقل منه وزنا يعتذر ولا يلبي.

ولو فتحنا ملفات هذا الباب لوجدنا مشاهد لا حصر لها كما قرأت لحفيده نديم بن عبد القادر في منشوراته: "ذكريات مع جدي الحبيب" ونعم الجد كان ونعم الحفيد خلف.

ولقد كان مع انشغاله بالدعوة والاعتكاف ومجالس العلم والذكر من المهمات يشارك ويرتب كثيرا من النزهات إلى بعض المزارع المحيطة بحلب ، وتجده فيها شخصية أخرى هشوشا بشوشا لطيفا ممازحا يطعم غيره بيده ويأكل من يد غيره بلا أدنى تكلف وكم حضرت معه وشاركت في هذه السياحات كان آخرها قبيل وفاته رحمه الله تعالى بشهرين حيث أكرمني الله تعالى بعد انقطاع عنه طويل بلقياه ولما عزمت السفر للعودة حيث أقيم في الإمارات رغبت بوداعه فاتصلت بولده المبارك سيدي عبد القادر حفظه الله وبثثته نيتي فصلينا العصر وحضرنا تلك الساعات الجميلة في إحدى المزارع القريبة مع ثلة كبيرة من الأحباب ،وكان مجلس أنس كأنه روضة من رياض الجنة حيث النغم الجميل والذكر الاصيل والبسمة المشرقة واللهو المباح.

ولا أخفي كل قارئ لهذه السطور أن سيدي الشيخ رحمه الله تعالى كان يوليني اهتماما كبيرا ويعدني كواحد من أبنائه [3] لما ودعته هذه المرة أطلت النظر في وجهه كثيرا وخشيت أن تكون آخر فرصة أراه فيها فقبلت يديه وعانقته بحرارة ولما ابتعدت عنه عدت وأمعنت النظر في محياه الجليل وفعلا كان ما كنت أتخوف فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

[3] وأذكر أني ذات مرة صارحته بحبي له كما هو السنة فقال لي:
إني أحبك كثيرا أبا عبد الكريم كواحد من أولادي ولكن حبي للشيخ محمد رجو حفظه الله تعالى – أكثر- وكان قد جرى ذكر بعض مناقب الشيخ محمد حفظه الله تعالى قبل هذا – ثم قال : فكيف حبك له؟
فقلت: <u>على حبك يا سيدي كنت أحبه والآن زاد حبي له أكثر.</u>

أقول : كيف لا أحب من أعرفه معرفة لم تزدها الأيام الا سطوعا؟ كيف لا أحبه وقد أحبه الكبراء الأولياء سيدي الشيخ أحمد رضي الله عنه وعني به وسيدي الشيخ محمد نديم رحمه الله تعالى وإني أتقرب إلى الله تعالى بهذا الحب وأسأله أن يجعل هذا الحب ثابتا راسخا حتى الممات.

وحصل لي مثل ذلك مع والدي الكريم الحاج عبد الكريم رحمه الله تعالى الذي انتقل إلى الدار الآخرة قبله ببضعة أيام ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وملامح التوازن والتكامل في مواقفه وحركة حياته كثيرة يطول بسطها ومن ذلك أنه رحمه الله كان من قبيل وفاته بعقد من الزمن ميال جدا للتيسير في الفتاوى وترك التشدد ما دام هناك مساغا شرعيا ثابتا وكنت أعرفه من قبل أكثر تشددا وتذاكرنا في هذه المسألة بشكل مطول فذكر لي مقولة مأثورة عن سفيان الثوري -رحمه الله- قال :

"إنما العلم أن تسمع بالرخصة عن ثقة، فأما التشدد فيحسنه كل أحد " فكم راقت لي وأعجبت بها.

وهذا من تكامله النادر الذي زاد مع الأيام سطوعا وإشراقا حيث كان يغرسه فينا ويذكر به كل من لقيه ويستنكر على المتشدد الذي يجد الرخصة ولا يقول بها لعموم الناس، ويعتبر ذلك من القصور في الفقه وإدراك الواقع.

خامسا :الدعوة الصادقة وجوهر الإصلاح :

الدعوة إلى الله تعالى أصبحت اليوم فريضة عينية بعد أن كانت فريضة كفائية نظرا لكثرة الفساد وأهله وانتشار الدعاة المبطلين المزيفين، فأصبح انتشال الناس من الضياع وردهم للحق وتحبيبهم فيه من أهم الفروض الإلهية على كل قادر مهيأ استوفت في الشروط والأحكام، ولقد كان المترجم له عليه رحمات الله الواسعة من الذين تأهلوا لهذا الفرض بما رزق من:

- عقل حكيم.
- وخلق مستقيم.
- وتربية راقية.
- وخبرة واسعة.
- وعلم راسخ.
- وحال صادق.
- وأسلوب رشيق.

بل لقد كان في هذا الجانب في أعلى المستويات المتاحة في معاصريه على الرغم من الهيبة العالية والوقار الشديد الذي جعل بعض الناس ينفر منه ويظن أن فيه عظمة لا تليق بعالم!

وقد حكى لي ذلك بعض الذين كانوا يغشون مجالسه ويحضرون دروسه فقلت له مبتسما: من أوصاف النبي ﷺ أن مَن رآه بديهة هابه، ومَن خالطه معرفةً أحبَّه، أليس كذلك؟

قال : بلى، قلت : أنت رأيته من بعيد ولو خالطته من قرب وجالسته وتحدثت إليه لأحببته وتحولت رؤياك له ثمانين درجة؟؟ وبعد فترة أشهر رآني هذا الأخ وقال لي: " صدقت لقد كنت عجولا في حكمي عليه"

ويتميز نشاطه الدعوي عليه رحمات الله الواسعة بأنه كان طويل المدى واسع الجوانب حيث أمضى عمره المبارك جميعه في هذا الشأن وأهم أنشطته الدعوية المشهورة :

- خطبته الأسبوعية في جامع الفتح التي كانت تتميز بواقعيتها ومعالجتها لواقع حياة الناس والتي استمرت أكثر من أربعة عقود على التوالي الا في أيامه الأخيرة حيث كان ينوب عنه ولده الشيخ عبد القادر حفظه الله ورعاه.
- مجالس العلم والذكر التي كانت تقام في هذا المسجد بعد الفجر وبعد ظهر يوم الجمعة في حصة التفقه في الدين وما بين العشاءين أحيانا حيث أقرأ كثيرا من الكتب وأجاب عن عشرات المئات من الأسئلة.
- جولاته وزيارته المتنوعة حيث كان يزور ويدعى لكثير من مراكز الدعوة كمسجد أبي النور وغيره ومساجد سوريا في كثير من المحافظات خاصة في مناسبات المولد النبوي الشريف وكم لبى دعوة الفقير لما كنت مقيما في جسر الشغور قبل الإقامة في الامارات.
- دروسه الخاصة في مسجده وفي بيوت بعض الأحباب بل حتى نزهاته التي كان ينظمها مع مجموعات من الشباب والأحباب حيث كانت مجالس دعوية وتوجيهية مع فواصل من الترفيه المباح كالسباحة واللعب المباح ،حيث كنت ترى في جميع ذلك صورة

الداعيـــة الشـــفوق، والمربـــي الحكـــيم، والناصـــح الـــرحيم رحمـــه الله تعـــالى برحماته الواسعة.

- ومـــن الأنشـــطة الدعويـــة المكـــررة دروســـه العمليـــة النـــادرة عـــن فريضـــتي الحـــج والعمـــرة فـــي ذلـــك الوقـــت حيـــث كـــان يؤديهـــا بطريقـــة فريـــدة متميـــزة بحيـــث صـــارت فـــي محافظـــة حلـــب أنموذجـــا يحتـــذى وســـببها أنـــه ذهـــب ذات مـــرة فـــي زيـــارة أحـــد معارفـــه وقـــد وجـــد رجـــلاً عائـــداً مـــن رحلـــة الحـــج ، وأخبـــره أنـــه قـــام بفعـــل ذكـــي أثنـــاء الطـــواف اختصـــر فيـــه الجهـــد والوقـــت ، حيـــث إنـــه قـــام أثنـــاء الطـــواف بالكعبـــة المشـــرفة بـــالمرور داخـــل الحجـــر والخـــروج مـــن الطـــرف الآخـــر ، ولـــم يعلـــم ذاك المســـكين أن حجـــر ســـيدنا اســـماعيل عليـــه الســـلام جـــزء مـــن الكعبـــة المشـــرفة ، فلـــم يصـــح طـــواف ذلـــك الرجـــل وبالتـــالي لـــم يصـــح حجـــه ممـــا حـــدا بشـــيخنا رحمـــه الله تعـــالى ليبدأ دروسه سنة ١٩٨٣ .

وكانـــت تلـــك الـــدروس تبتـــدئ بعـــد شـــهر رمضـــان يـــومي الاثنـــين والخمـــيس، بالتنـــاوب بـــين الشـــكل النظـــري والعملـــي، واســـتمر علـــى ذلـــك مـــا يزيـــد عـــن ثلاثـــين ســـنة، ثـــم أكمـــل ولـــده الشـــيخ عبـــد القـــادر حفظـــه الله تعالى هذا الخير على نفس النهج في هذه الدروس لبضع سنين.

وقـــد قـــام أحـــد أحبـــاب الشـــيخ وهـــو الأخ المهنـــدس عبـــد الوهـــاب بـــوادقجي حفظـــه الله بكتابـــة كتيـــب أســـماه دليـــل الحـــاج والمعتمـــر وقـــد قـــام شـــيخنا رحمـــه الله بتدقيقـــه، وهـــذا الكتـــاب موجـــود علـــى شـــبكة الإنترنـــت ومتـــرجم لعـــدة لغـــات كالإنكليزيـــة والفرنســـية والألمانيـــة والتركيـــة والأوردو، جـــزاه الله كل خير.

سادسا : ورعه النادر وصفاؤه المتميز:

الـــورع روح الإســـلام وعمـــود ســـنامه لأنـــه أعظـــم ثمـــرات التقـــوى التـــي لا يحققهـــا الا أوليـــاء الله تعـــالى المقربـــون، ولقـــد كـــان رحمـــه الله تعـــالى علـــى درجـــة نـــادرة مـــن الـــورع لـــم أشـــهدها فـــي كثيـــر مـــن أقرانـــه ونظرائـــه مـــع أنهـــم جميعا أهل علم وصلاح حتى في أحلك المواقف وأصعبها من ذلك :

- ❖ دخلـــت عليـــه ذات مـــرة عنـــدما انتشـــرت فتنـــة المشـــيخة بعـــد وفـــاة ســـيدي عبـــد القـــادر عيســـى شـــيخ مشـــايخنا وإمـــام مدرســـتنا الشـــاذلية فـــي ربـــوع حلـــب رضـــوان الله عليـــه وعلـــى جميـــع رجـــال السلســـلة الذهبيـــة المباركـــة حيـــث ثـــار لغـــو كبيـــر حـــول أحقيـــة ســـيدي أحمـــد بـــن فـــتح الله جـــامي خليفـــة

سيدي عبد القادر رضي الله عنه مع أنه كان مأذونا إذنا خطيا مشهودا بين المقدمين من أهل الطريق المبارك ولا داعي لمزيد من التطويل ، فقلت له بعد ما استقر بي المجلس : سيدي أجدني حائرا مما أسمع من هذا اللغو العجيب ،فبم تنصح ؟

فنظر نظرة المتريث وهو يردد .. الله.. الله. وعيناه تكاد تدمعان ثم قال: ألك قلب؟

فتعجبت من سؤاله وقلت: نعم إن شاء الله فقال : احضر هنا واحضر هناك فحيثما جمع قلبك مع ربك فثم الطريق !

وأردف قائلا: عار علي وعليك نحذر الناس من الغيبة ثم نجلس نقع في أعراض إخوان لنا كنا نقبل من أيام أياديهم !! ويشهد الله الذي لا إله الا هو لقد سرى نور هذا النصح في أعماقي ولا يزال حتى اللحظة ، حيث ألهمني الله تعالى العمل به ووجدت الخير في هذا العمل ،ومواقف الورع والخشية التي شهدتها فيه رحمه الله كثيرة ويطول المقام ببسطها .

- لقد كان رحمه الله تعالى شديد التعلق بالخالق العظيم جل وعلا ،فلا أكاد أذكر أني ذاكرته في أمر صغير أو كبير من حوالي أربعين عاما -حتى قبيل وفاته بيوم حيث من الكريم علي بمذاكرة خاصة معه - إلا وجدته يوجهني للإقبال على الله تعالى والتمسك به وترك الالتفات للخلق مع الشفقة عليهم والصفاء تجاههم وهما جوهرتان نادرتان قلما تجدهما الا في قلوب الكمل من عباد الله الصالحين.

ومن نوادر ذلك أنني دعيت للالتحاق بخدمة العلم أي العسكرية وكانت آنذاك أي في عهد النظام البائد من أصعب المراحل التي يجتازها الشاب من أمثالنا وكان لابد لي من البحث عن واسطة حتى يأتي فرزي في مكان مريح وكان للشيخ رحمه الله تعالى خالا ضابطا كبيرا في الجيش العربي السوري فذهبت بنية أن أعرض عليه حالتي عساه أن يساعدني فلما سمع مني قال : لك عندي خياران ، أحدهما مضمون والثاني غير مضمون فاختر ما تشاء فقلت على الفور: المضمون يا سيدي المضمون لكن ماهو ؟

فقال دعه سرا : فقلت لابد أن أعلم حتى أطمئن فقال : المضمون أدعو لك في السحر وغير المضمون أكلم خالي ولا أدري هل يرد ويستجيب ام لا ؟

فتعجبت من جوابه وأصررت على المضمون لأنه كان عندي أعجب من غير المضمون ، ومرت الأيام والتحقت بمركز الرادار الجوي وخدمت في أحسن خدمة كانت سببا لكثير من الخيرات التي مرت علي في حياتي في قصة يطول سردها إلا لمن رغب .

وكنت أظن أن هذا خاص معي ومع الأيام تعرفت على أخ يقال له أبو فؤاد كان يعمل بتنجيد المفروشات فقص علي حالة مشابهة فقلت في نفسي: سبحان الله يتحدثون عن الكرامات الخارقات ويستنكرونها أليست هذه كرامات واضحة؟

وكيف يجترئ أحدنا أن يعد غيره وعدا قاطعا لولم تكن له عند الله تعالى ولاية خاصة لا تزلزلها الأحداث والأعراض؟ رحمه الله تعالى ورحمنا به.

سابعا: مفردات من شمائله ووفاته رحمه الله تعالى :

كان رحمه الله تعالى واسع الصدر حليما ، حسن المعشر كريما ،تجلت فيه أغلب الأخلاق النبوية الشريفة ﷺ بعفوية ورسوخ لا بتكلف ، وكان رحمه الله مع هيبته بسّام الوجه ، ضاحك المحيّا ، متّزناً في كلامه ، كثير الذّكر لله سبحانه وتعالى ، والصلاة على سيّدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، تالياً للقرآن، واصلاً للرّحم القريبة والبعيدة ، حافظاً للودّ ، ساعياً في قضاء حوائج النّاس ، طيب المعشر ، كريماً من غير سرف ، معتدل الإنفاق من غير بخل ، جميل المظهر له هيبة في مجلسه إلا أنه يتبسط مع جلسائه ، يبادر لخدمة ضيفه بنفسه ، يكره أن يمشي خلفه الكثرة من النّاس ، لا يخاف في الله لومة لائم ، لا يصرّ على الخطأ إن تبيّن له ويرجع للحقّ ، يقبل النصيحة ، يحثّ على ما يجمع النّاس ويغضب لبثّ الفرقة ، يحب العلماء العاملين الربّانيين والأولياء الصالحين وطلاب العلم ويتواضع لهم، صافي الجنان عفيف اللسان مع عموم الخلق خاصة بحق ضيوفه وأهله وأحبابه ،عالي الهمة ، مسددا موفقا ،كل ذلك ببركة أشياخه المعاصرين الذين تلقى عنهم ، إذ كان موفقا في حسن التلقي والعمل بنصحهم ومن جملة شيوخه الذين تلقى عنهم الأستاذ الكبير أحمد القلاش

رحمه الله تعالى [4]وهو من أهل العلم والتحقيق خاصة في علوم اللغة العربية وله مؤلف في هذا الفن اسمه تيسير البلاغة كان مقررا علينا في المرحلة الإعدادية يحكي حفيده النجيب نديم بن عبد القادر حفظهما الله بلطف وعناية في ذكريات نشرها عن شيخا المترجم له بعض مناقبه فيقول :

"قبل ما يقارب من خمس وعشرين سنة زار سيدي الجدّ الشيخ محمد نديم الشهابي رحمه الله العلامة اللغوي صاحب البلاغة جدّ أمي فضيلة الشيخ أحمد القلاش رحمه الله نزيل المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأكمل التسليم ؛ وكان آنذاك في زيارة صيفية إلى مدينة حلب ، وكانت زيارة عامرة بالمودة والصفاء ، ودار حديث حول سنّ التقاعد وكان الشيخ محمد نديم رحمه الله حينها قد جاوز الستين من عمره ، فقال الشيخ أحمد القلاش رحمه الله تعالى بلهجته الجميلة بأسلوب بليغ يجمع بين بساطة المفردات وعمق المعنى ، قال فيما معناه (بنيّ ، إذا كنت موظفا" عند الحكومة فبإمكانك أن تستقيل ، أما إذا كنت موظفا" عند الله فلا استقالة حتى الممات) ، وكان الشيخان الكريمان رحمهما الله على منهج الدعوة إلى الله حتى الممات".

وفاته رحمه الله تعالى :

ظل رحمه الله تعالى مستقيما على فضائله ،وفيا بعهوده ،ملازما لما تعود عليه من الخيرات ،مواصلا لمن تواصل به وأذكر أني ذاكرته قبيل وفاته بيومين حول مسألة خاصة فأجابني بهمة ونشاط وعفوية كما لو كان في عز نشاطه وحيوته وبقي هكذا حتى في الأسبوع الأخير من حياته رحمه الله كما يحكي حفيده نديم بن عبد القادر حفظهما الباري وجعلهما قرة عين لسينا رسول الله ﷺ في منشوراته عن جده حيث ألقى دروسه في جامع الفتح في كتاب الشمائل "سيدنا محمّد رسول الله" ، وفي كتاب "حقائق عن التصوف" وليلة وفاته في كتاب "عظيم قدره صلى الله عليه وسلم ورفعة منزلته عند ربه سبحانه وتعالى" ، وحضر مجلس الصّلاة والسّلام على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم الخميس في جامع سيدنا ابراهيم الخليل ويوم الجمعة بعد الفجر في جامع الفتح ، وكان له يوم

[4] توفي الشيخ أحمد القلاش رحمه الله سنة ٢٠٠٧ ميلادية عن عمر ناهز المئة عام في المدينة المنورة ودفن في البقيع سنة ٢٠٠٥

الاثنين سهرة لتلاوة القرآن مع جيرانه ، وكان مسك الختام صبيحة وفاته صلاة الفجر مع الجماعة ومجلس تلاوة القرآن في جامع سيدنا عبد الله بن المبارك ثم صلاة الضحى ، وعند عودته لمنزله أرسل كالمعتاد حديثاً من أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لكثير من أحبابه عبر الجوال ، ثم اضطجع وأسلم الروح لبارئها﴿

مما قيل في رثائه :

من أجمل المرثيات التي انتشرت بعد وفاته رحمه الله تعالى مقولة سيدي الشيخ محمد عبد الله رجو حفظه الله تعالى على اختصارها وهذا نصها كما نشرت في صفحته على الفيسبوك:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله الذي يحيي ويميت وهو الحيُّ الذي لا يموت، والحمد لله الذي حفظ هذا الدِّينَ على تعاقُب الأيام والسنين، بما وفَّق إليه أئمةَ العلمِ العاملين.. وأفضلُ الصلاةِ وأكملُ التسليمِ على سيِّدِنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى ورثةِ إمامِ الأنبياءِ والمرسلين، العلماءِ الربّانيِّين، أئمةِ العلمِ منارات الهدى إلى يوم الدين. أما بعد:

فقد جاء في الصحيحين عن سيدِنا رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: (إنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا).

وثَبَتَ عن سيِّدنا عبد اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} قال: موتُ علمائِها وفقهائِها.

هذا وقد ورد أنه إذا مات العالم ثُلِمَ في الإسلام ثُلْمَةٌ؛ كما ورد عن التابعيِّ الجليلِ الحسنِ البصريِّ رحمه الله تعالى: (موتُ العالمِ ثُلْمَةٌ في الإسلامِ لا يَسُدُّها شيءٌ ما اختلفَ الليلُ والنهار).

ونحن إذْ نستقبل بالرِّضا والتسليم نبأ وفاةِ العالمِ الربَّانيِّ الجليل، سيدي وأستاذي فضيلة الشيخ محمَّد نديم الشهابي رحمه الله تعالى، والذي تلقَّيتُ عنه العلومَ الشرعيةَ في مدرسة العادليَّة، تحت عنايةِ ورعاية وإشرافِ المرشدِ الكبير مربِّي العارفين ودليلِ السالكين بحالِه وقالِه سيدي فضيلةِ الشيخ عبد القادر عيسى رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وبسائر العلماءِ العاملينَ وعبادِ الله الصالحين.

وكان أستاذُنا (فضيلة الشيخ محمد نديم رحمه الله تعالى) حينذاك مديراً لهذه المدرسة، مدرسةِ الإحسان في جامع العادليَّة، وكنا نرى فيه العالمَ العاملَ المربّي، الحازمَ الشفوقَ، المَهيبَ المتواضعَ، يخدمُ ضيوفَه في داره بنفسه، ويُحضّرُ لهم أحذيتهم إذا انصرفوا ولو كانوا من طلابه.

واسعُ الثقافة يُخاطبُ ضيوفَهُ وطلابَهُ كُلًّا باختصاصه، ويَنفذُ من خلال ذلك إلى المنهج المطلوب منهجِ السيرِ والسلوكِ إلى ملك الملوك.

ومن لطائف تربيته للطلاب أنَّه كان يصلي صلاة الضحى في فرص الاستراحة بين الدروس، ففي كلِّ فرصة يصلي أربعَ ركعات، ويصلّيها في المسجد المخصَّص لصلاة الأساتذة والطلاب.. ثم ينصرفُ إلى الإدارة ويجلس مع أساتذة المدرسة في غرفة الإدارة، وكان كُلُّ الأساتذة يفعلون ذلك، من دون أن يُلزِموا الطلاب؛ فكان جُلُّ الطلاب - إن لم يكن كلُّهم - يتوجَّهونَ إلى المسجد في كلِّ فرصة، ليصلُّوا صلاة الضحى.

وكان رحمه الله تعالى حريصاً على متابعة السُّنن النبويَّة في العبادات والعادات.. مجلسُهُ أبعدُ ما يكون عن الغيبة والنميمة، يكرهُ القيلَ والقال.. إذا تكلَّم أحدٌ في مجلسه وذكرَ أحداً من الخَلقِ بما لا يليقُ، قال له: يا سيد! ذِكْرُ الخلقِ داءٌ، وذِكْرُ الخالقِ دَواءٌ.

قرأنا عليه بعد الانتهاء من مرحلة المدرسةِ الشرعية جُملةً من الكتب الإسلامية، ككتابِ (التسهيل لعلوم التنزيل للإمام ابن جُزَي رحمه الله تعالى)، وكتابِ (بهجةِ النفوس وتحلّيها بمعرفة ما لها وما عليها... شرح مختصر صحيح الإمام البخاري، للإمام ابن أبي جمرة رحمهما الله تعالى)، وكتابِ (شرح جوهرة التوحيد للإمام الصاوي رحمه الله تعالى)، وكتابِ (تيسير البلاغة للشيخ أحمد القلاش رحمه الله تعالى) وغيرِها.

وكان رحمه الله تعالى مدقِّقاً في تقرير المسائل، يسمعُ أثناء الدرس من الجميع، يَقبل الملاحظةَ من أيِّ واحد، وإذا أعجبته كان يصرّحُ في أكثر الأحيان ويقول: (أفرحْتَني)، وإذا كانت الملاحظةُ غيرَ مقبولة يُقابلها بابتسامةٍ جميلةٍ، ثم يتابع الدرس.

وعندما شرَّفني اللهُ تعالى بزيارة شيخنا العارفِ بالله سيدي الشيخ عبد القادر عيسى في عمَّان في عام 1409هـ - 1989م، وأخبرتُه بهذه الدروس، قال لي: بلِّغْ سلامي على الشيخ نديم وقل له يحافظ على هذه الدروس، فلمَّا بلَّغته رحمه الله تعالى دمعتْ عيناهُ ثم قال: كرِّرْ عليَّ ما قال شيخُنا، فكرَّرتُ، فدمعَتْ عيناه، ثم قال: من فضلك كرِّرْ عليَّ ما قال شيخنا، وعيناهُ تفيضانِ بالدمع، ويضعُ كلتا يديه فوقَ عمامته قائلاً: على الرأس والعين..

وفي إحدى زياراته لشيخنا العارفِ بالله سيدي الشيخ أحمد فتح الله جامي رضي الله عنهما، وفي أثناء المجلس قال له شيخُنا رضي الله عنه: يا شيخ نديم ما هو أفضل حالٍ تحبُّ أن تلقى الله عليه؟ قال: يا سيدي أحبُّ أن ألقى الله وأنا حاضر مع الله.. فقال له: إذاً عليك أن تكون حاضراً مع الله تعالى على الدوام، تلقاهُ إن شاء الله وأنت حاضرٌ معه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}.. فدمعتْ عيناهُ رحمه الله تعالى، وكان للمجلس هيبةٌ وبهاء، لا سيما في هذه اللحظات.

وها هو رضي الله تعالى عنه ينتقلُ إلى الرفيق الأعلى، وقد دنا عمرُهُ من التسعين، وهو يُتابعُ دروسَه الدينيةَ المسائية، ومجلسَ الصلاةِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ بعد الفجرِ من كلِّ يومِ جمعةٍ في جامع الفتح، ومجلسَ التلاوة والتفسير بعد صلاة الفجر إلى صلاة الضحى من كلِّ يوم في جامع سيدنا عبد الله بن المبارك القريب من داره.

وآخرُ مكالمةٍ شرَّفني الله بها معه يوم الجمعة الماضية (19 صفر 1446هـ) بعد خروجه من مجلس الصلاة على النبيِّ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ.. وفي نهاية المكالمة دعا لي، فقلتُ: يا سيدي إني محتاج دائماً لدعائكم، فقال: تدعو لي وأدعو لك، وإني أدعو لك على الدوام، فقلتُ: يا سيدي دعائي لكم من قبيل الواجب عليَّ، ودعاؤكم لي فضل منكم عليَّ، فقال رحمه الله تعالى وهو يبتسم: الفضلُ لله أولاً وآخراً.

سُئلَ رضي الله عنه مرةً في مجلسٍ عامرٍ منذُ أكثرَ من ثلاثين سنة، من قبل أحد الضيوف في غرفة المسجد: ما دواءُ الكسل؟ فقال رضي الله عنه على الفور: النظرُ إلى دُنوِّ الأجل.

نسألُ الله تعالى ونَضرعُ إليه أن يتغمَّدَهُ بالرَّحمة، وأن يُكرمَهُ وأن يُكرمَ الأمَّةَ الإسلاميةَ بسدِّ هذه الثُّلْمة، فإنه جلَّ وعلا هو المتفضِّل على هذه الأمَّة بدوام الخير فيها إلى يوم الدِّين.

وعزاؤُنا لأهله ولأنفسنا وإخوانه وطلابه والمسلمين، راجينَ من الله تعالى أن يجعلَ منهم خيرَ خلفٍ لخيرِ سلفٍ.. إنَّ العينَ تدمعُ، والقلبَ يحزنُ، ولا نقولُ إلا ما يُرضي ربَّنا، وإنا على فراقك ـ يا شيخَنا الحبيب، وأستاذَنا المَهيب ـ لمَحزونون، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

اللهم اكتبْهُ عندك في المحسنين، واجعلْ كتابه في عِلِّيين، واخلُفْهُ في أهله في الغابرين، ولا تحرمْنا أجرَهُ، ولا تفتنَّا بعدَهُ، واغفرْ لنا وله برحمتك يا أرحم الرَّاحمين..

إنَّ لله تعالى ما أخذَ وله ما أعطى، وكلُّ شيء عنده بأجلٍ مسمًّى، فلنصبرْ ولنحتسبْ..

ألهمَنا اللهُ تعالى وإياكم عند المصائب صبراً، وأحرَز لنا ولكم بالصبر أجراً..

ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل، وصلى الله على سيِّدِنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم، والحمد لله ربِّ العالمين.

سيدي الشيخ محمد عبد الله رجو حفظه الله تعالى .